الوقائع والأفكار الاقتصادية في التاريخ الإسلامي

مقدمة :

يزخر التاريخ العربي الإسلامي بأفكار اقتصادية واجتماعية وسياسية توّجتها الوقائع الاقتصادية التي استجدّت على امتداد عصوره المختلفة، حيث ميّزت أمة بكل طروحاتها وتناقضاتها، وقادت طريق مجدها على أنقاض قبائل مشتتة متناحرة في غياهب الصحاري وسفوح الجبال...، فكانت لها الوحدة وكانت لها القوة ولازمتها الغلبة والتمايز لتسود في النهاية كل أصقاع الدنيا من "طنجة" إلى "جكارتا" ومن "البلقان" إلى "الصين" ومن "إسبانيا" إلى "ساحل العاج". وقد بنت حضارة عريقة قوامها أربعة عشر قرنا من الزمن. وفي ظل هذا البناء نبتت الأفكار الاقتصادية وانبعثت الوقائع الاقتصادية فكانت المؤسسات والهياكل وكان الرجال المؤطرين لهذه الحضارة والمواكبين لتطورها والراصدين لوقائعها وأحداثها.

وعلى الرغم من الجهد المضني لهؤلاء الرجال من علماء وسياسيين (حاكما ومحكوما)، وضخامة أعمالهم ونتاجاتهم وطروحاتهم المتميزة ... كلّ من بناء حضارة متفردة وتأسيس دولة بكل هياكلها وأركانها هي الدولة الحديثة وتفوّقها في بعض معالمها ومكوناتها، فإن أعمالهم هذه بقيت مغمورة ومطمورة يلفّها الغبار وتأكها الإرية في المكتبات والمتاحف العالمية.

كما أن الوقائع والأحداث التي استمد منها هؤلاء أعمالهم، وبنوا عليها طروحاتهم، وجسّدوا من خلالها نظرياتهم ونتاجاتهم المختلفة بقيت مجهولة إلى حد كبير، نظرا لقلة تناولها من قبل الدارسين والباحثين، بل ولاقتصارها على الاستعمال الموجّه من قبل المستشرقين من جهة، وعلى المسح التاريخي قصد الاستشهاد بها، وليس تمحيصها والإلمام بمحتواها وظروف وقوعها من جهة أخرى.

وانطلاقا ممّا تقدم فإن دراسة هذا الموضوع سيتيح للدارس الإلمام بحقائق هذه الأفكار والوقائع للأمة الإسلامية عبر التاريخ.

لذلك سنتناول هذه الأفكار والوقائع عبر المراحل التاريخية التالية:

1 ـ الوقائع والأفكار الاقتصادية في العصر الجاهلي.

2 ـ الوقائع والأفكار الاقتصادية في صدر الإسلام.

3 ـ الوقائع والأفكار الاقتصادية في بقية العصور.

وبعد بحث مستفيض، ونبش مستمر في أغوار التاريخ تبين لي الحقائق التالية :

1 ـ لم أجد أثرا ذا دلالة بالنسبة للوقائع والأفكار الاقتصادية في العصر الجاهلي نظرا لانعدام الوقائع والأحداث المنسجمة التي تؤرخ للقبائل المتناحرة على سفاسف الأمور، ما عدا بعض الإشارات الضمنية لظروف المعيشة وبعض العلاقات الاجتماعية المميزة لبناء القبيلة في حد ذاتها وعلاقاتها مع محيطها (بقية القبائل ودولتي الفرس والروم) وذلك خلال الأشعار والأقوال المأثورة المتواترة عن تلك الحقبة من الزمن.

2 ـ تبين لي أن زخم الوقائع والأفكار قد تجسد في عصر الخلفاء الراشدين باعتبار أن هذه الحقبة هي حقبة بناء النموذج الإسلامي المتفرد في المجال الاقتصادي المتفرد عن بقية الأنظمة الاقتصادية.

3 ـ لم أستطع تلمّح معالم الوقائع والأحداث الاقتصادية متوّجة بأفكار متفردة لبقية العصور نظرا لشساعتها وتعددها وانصهارها في بوتقة حضارية واحدة وضعت قاعدتها الأساسية في صدر الإسلام، لذلك اكتفيت باختيار بعض النماذج والتركيز عليها دون غيرها، كما أنني وجدت صعوبة كبيرة في فصل الوقائع عن الأفكار المؤطرة مما اضطرني في أكثر الأحيان إلى ربط الفكرة أو المفكر الذي جاء بها بملابسات وظروف العصر الذي ولدت فيه.

وعليه حوّرت خطة دراسة المقضية على نحو يستجيب للحقائق المرغوبة بالدراسة (الأفكار والوقائع الاقتصادية) كما يلي:

1 ـ الوقائع والأفكار الاقتصادية التي تضمّنها القرآن الكريم.

2 ـ الوقائع والأفكار الاقتصادية التي تضمّنتها السنة النبوية.

3 ـ الوقائع والأفكار الاقتصادية في عصر الخلفاء الراشدين.

4 ـ بعض الوقائع والأفكار الاقتصادية في بقية العصور.

وأثناء إعداد هذا الكتاب لا نجد بدا من الإشارة الواضحة على هذا الزخم الهائل من الوقائع والأفكار الاقتصادية المتوّجة لهذا التاريخ المجيد للأمة الإسلامية، مؤكدًا على أهمية مواصلة الدراسة لهذا الإرث الثمين،

ونفض الغبار عنه بما يمكننا من إعادة قراءته بموضوعية صرفة وعلى أسس علمية متينة.

وحتى إن لم أستطع تلبية هذا المطلب في هذا الكتيب من الزمن الحاضر، فإنني قد فتحت الباب على مصراعيه لزملائي الأساتذة والباحثين ولأبنائي الطلبة لاستكمال هذه المهمة والتعجيل بتحقيقها.

هذا ولي عودة إلى بقية أجزاء هذا الموضوع مستقبلا إن كان في العمر بقية ـ بمشيئة الله ـ.

د. محمود سحنون

obeikandl.com